من الحنان للبنات لم يكن يسع إلا بناتها هي، فجعلت نظرتها إلى الفتاة تقسو، وجعل صوتها إذا تحدثت إلى الفتاة يجفو، وجعلت معاملتها للفتاة تغلظ من يوم إلى يوم، والفتاة غافلة عن ذلك أول الأمر، ثم مُحتملة له بعد ذلك، ثم ضيقة به وصابرة عليه آخر الأمر، وسالم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث في الزواج ولا يشير إليه، وسليم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث في الزواج ولا يشير إليه، وقد كانت «مُنى» نفسها تتحدث في أمر هذا الزواج قديمًا فقد أصبحت الآن لا تتحدث فيه ولا تشير إليه، إنما يلمح به الفتيان من شباب الأسرة تلميحًا قليلًا ضئيلًا لا يلبثون أن يكفوا عنه ويخوضوا في غيره من الجد والمزاح، ثم تنسى الخطبة نسيانًا تامًّا، ولا يعرِّض أحد لهذا الزواج بلفظ أو إشارة، والفتاة ترى وتفكر، وتألم، وتصبر، وتنظر إلى وجهها في المرآة ثم تعكف على نفسها في صمت حزين، ولعلها أن تخلو إلى نفسها إن وجدت للخلوة وقتًا، فتعدد وتبكي كما تعدد النساء ويبكين، حتى إذا أحست نبأة أسرعت إلى بكائها فالتهمته التهامًا، وإلى دموعها فشربتها حتى تشرق بها، ووثبت مقبلة على بعض العمل كأنها لم تكن في بكاء ولا تعديد، وبمقدار ما كانت سيرة «مُنى» تتغير مع جلنار كان عطف جلنار على أمها يشتد ويزداد؛ فقد أخذت تُعنى بها عناية خاصة في اللفظ واللحظ والإشارة والمعاملة، وكانت في الفتاة جفوة هي خير مظهر من مظاهر الحب والحنان؛ فكانت إذا جفت على إنسان في قول أو عمل دلَّ ذلك على أنها تؤثره بالود الخالص والحب العميق، وقد أخذ حظ أمها يزداد من صوتها الغليظ وألفاظها الجافية ونظراتها الحادة وحركاتها العنيفة؛ فكانت تقدم إليها القهوة إذا أصبحت وكأنما تنهرها نهرًا شديدًا، وكانت تتحدث إلى أمها في صوتها المرتفع الحاد، فإذا ظلت أمها ذاهلة كعهدها اندفعت إليها عنيفة بها فهزتها هزًّا شديدًا، وهي تقول: إني أكلمك ألا تسمعين! وإذا سمعت فهلا تجيبين! ربما اختطفت من أمها أثناء هذا العنف قبلة سريعة خفيفة لا تكاد تلحظ، وقد صبرت نفيسة على هذا العنف، لم تحسه أول الأمر ولم تلتفت إليه، ولكنه اتصل واتصل، وتكرر أثناء النهار، وتكرر في أول الليل، وأخذت الأسرة تُلاحظ أن في نفس الفتاة شيئًا أو أنها تريد من أمها شيئًا، ولكن قلوب الشباب قاسيات وقلوب الأمهات أشد قسوة إذا شُغلن بولدهن، فلم يحفل أحد من الأسرة بهذا العنف الذي كانت تهديه الفتاة إلى أمها، وما يعنيهم من ذلك! فتاةٌ حمقاء، وأم مجنونة، فليفرغ الشباب لأمرهم، ولتفرغ الأم لبنيها ولبناتها خاصة.

وفي ذات يوم أقبلت الفتاة ضجرة إلى أمها تتحدث إليها عنيفة بها في الحديث، فلما أبطأت الأم في الجواب هجمت الفتاة عليها كأنها الغول تريد أن تلتهم فريستها، فارتاعت